الباب الثاني

ومضات أثناء الهجرة والإعداد لها

الفصل الأول:
الإعداد للهجرة

لا ريب في أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أصيب بصدمة كبرى عند وفاة عمه أبي طالب، فلقد كان عمه هذا بمثابة الأب الحامي والسند القوي له ضد الظروف المادية القاسية التي نشأ فيها بين خصومه وأعدائه من قريش..

فلم يكد أبو طالب يقبر حتى قامت قريش تدبر المكائد وتمعن في التآمر وتنثر بأيدي سفهائها التراب على رأس ذلك الذي أرسله القدر ليعارض وثنيتها وكبرياءها وجهلها في هذه المنطقة من الأرض.. لينطلق منها أصحابه وتابعوه لهداية الإنسانية جمعاء...

لقد خرجت المعركة بعد وفاة أبي طالب من طور الجدل والمساجلة بالحجج والبراهين على وجود إله واحد غير إلهتهم من الأوثان المنحوتة... إلى طور القهر والإهانة والعذاب النفسي.. وتبدلت لغة التخاطب إلى لغة الأكثرية الجاهلية الغاشمة ضد فرد واحد كله عقل وكله إيمان وكله حساسية، ولم يكن هناك لدى قريش حل للأزمة التي أوجدها محمد صلى الله عليه وسلم في محيطها سوى الحل الأخير الذي راودهم ووسوس الشيطان به في صدورهم بعد موت عمه أبي طالب وهو قتله والتخلص منه ومن أفكاره إلى الأبد.

وتتراءى للرسول صلى الله عليه وسلم رؤية الخلاص من هذا الموقف.. وهو على يقين بأن الله ناصره عليهم ومؤيده، وأنه جل

وعلا سيخلصه بمعجزة من أيدي الجبابرة، من طراز أبي جهل وأبي لهب اللعينين.

وهو يعرف أن خلاصه هو في الهجرة من مكة.. ولكن الهجرة إلى أين..؟ فإن ما رآه في المنام لم يكن - لحكمة ما أرادها العلي القدير - واضحاً تماماً أو بمعنى أدق محدداً فقد جاء على لسانه صلى الله عليه وسلم :♂**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض فيها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي مدينة يثرب**═ أخرجه الشيخان ورواه أحمد والترمذي.

وقوله صلى الله عليه وسلم :♂**إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين**═ أخرجه الشيخان.

ويرى الرسول صلى الله عليه وسلم أن هجرته قد تكون إلى الطائف فلعل قبيلة ثقيف خاصة تنصره.. فيخرج ومعه زيد بن حارثة قاصداً الطائف طلباً للمؤازرة من أهلها شارحاً للدين الجديد. ولكنهما يعودان بخفي حنين.. وليس هذا فحسب، بل يترصد لهما في طريق العودة سفهاؤهم، ليقذفوهما بالأحجار حتى تدمي رأساهما وأرجلهما..

وعندئذ يتأكد صلى الله عليه وسلم أن رؤياه تنصب على بلد آخر غير الطائف.. ولكن ما هي هذه البلدة التي تنصب عليها رؤياه.. لقد اجتهد في الأسباب طبقاً لقواعد الناموس.. ولكن لم يصل لنتيجة حاسمة.. إذا فعليه أن يتجه إلى العلي القدير سائلاً العون، معلماً الإنسانية جمعاء بأن الدعاء بطلب العون من الخالق العظيم لابد وأن يصاحبه اجتهاد واستنفاد للأسباب طبقاً لما تمليه قواعد الناموس حتى

مع الأنبياء والرسل.

وهنا يستجمع محمد صلى الله عليه وسلم كل ما لديه من إيمان وعقل وحساسية ومواهب روحية أنعم بها عليه العلي القدير، متوجهاً بها إلى خالقه العظيم ودماؤه تنزف غير مبال بها: ♂**اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس.. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي.. إلى من تكلني.. إلى بعيد يتجهمني.. أم إلى عدو ملكته أمري.. إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي.. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك**♂.

دعاء من رسول على خلق عظيم إلى إلهه ومرسله وخالقه العظيم العلي القدير سبحانه وتعالى عما يشركون دعاء أشبه بصلاة.. والمتأمل في التاريخ يجد أن أنبياء الله قد غيروا وجه هذا التاريخ إثر صلاة عميقة أو إثر مناجاة حارة للخالق العظيم سبحانه وتعالى.. إذ إن في تلك المناجاة الصادقة تأتي القوة الإلهية الخارجة المطلقة لتفعل فعلها..

فها هو نوح عليه السلام يشكو قومه لربه:

قال تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح: ٢٦].

وإبراهيم عليه السلام عندما ألقى به في النار توجه إلى الله عز وجل شاكياً وداعياً فكانت النتيجة:

قال تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾} [الأنبياء: ٦٩].

وها هو النبي موسى عليه السلام وقد أراد فرعون اغتياله وقد

قال تعالى على لسانه:

قال تعالى:{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾} [غافر: ٢٦].

ويقول عز وجل على لسان موسى:

قال تعالى:{وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾} [غافر: ٢٧].

ويقول عز وجل على لسان النبي زكريا:

قال تعالى:{وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ} [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

وها هو المسيح عليه السلام يناجي ربه بلسان الإنجيل:

(أنا مجدتك على الأرض العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته)

ويناجيه بلسان القرآن:{وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

ويعود محمد صلى الله عليه وسلم مع غلامه زيد إلى مكة.. وفكرة الهجرة متبلورة في رأسه ويرى ببصريته ثم منامه أنه أذن له، بالهجرة وأن البلدة المقصودة هي يثرب (المدينة) وليست الطائف.. وإن ما رآه من قبل مصاحباً له هو أبو بكر الصديق وليس

زيداً.

* * *